المبحث الثامن
دور الحرب النفسية في غزوة أُحد

تمهيد:

يقول د/ فهمي النجار: «تجتاز الأمة الإسلامية في هذه الفترة التاريخية مرحلة خطيرة في حياتها لم تشهدها أمة من أمم الأرض، فقد تداعى عليها الأعداء من كل جانب، وتناهبوا أرضها وشعبها وفكرها ومقدساتها، وفرَّقوا شملها، وداسوا كرامتها، وسلَّطوا عليها شُذَّاذ الآفاق، بعد أن صنعوا منهم دولة، وزودوهم بأفتك الأسلحة لينهشوا من لحمها، كلما شعروا بالجوع، دون أن يجرأ أحد من هذه الأمة على رد العدوان، واسترداد المقدسات، واسترجاع الكرامات.

وما هو أشد وأدهى، تعرُّض هذه الأمة إلى حرب نفسية رهيبة من قِبل أعدائها العريقين في عداوتهم، والذي يمثلهم الثالوث اليهودي والصليبي والشيوعي، مستخدمين وسائل الإعلام كافة، وبكافة أنواع الأسلحة من دعاية كاذبة، أو شائعة مُغرضة، أو ضغط اقتصادي، أو تخويف وإرهاب، حتى عمليات غسيل الدماغ لم ينسها هذا العدو البغيض، وهدفه الأول والأخير تحطيم عقيدة هذه الأمة، وقَطْع العُرى التي تربطها بدينها وقِيمها وأخلاقها، ومن ثم تمزيق شملها ووحدتها وإضعافها وضمان تبعيتها له في كل أمر من الأمور السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية.

لذا فنحن أبناء هذه الأمة في أشد الحاجة إلى فهم طبيعة هذه الحرب النفسية ومعرفة أساليبها وأسلحتها، وتقويم خطرها تقويمًا صحيحًا لنستطيع ـ بإذن الله ـ أن نفوِّت على العدو أهدافه، ونحبط مخططاته، وشن عليه حربًا نفسية مضادة لرد كيده في نحره». [الحرب النفسية للنجار ٣-٤].

١ ـ مفهوم الحرب النفسية:

يقول د/ زين السيد: «**الحرب النفسية هي**: استخدام مخططًا من جانب دولة أو مجموعة من الدول في وقت الحرب أو وقت السلم لإجراءات إعلامية بقصد التأثير في آراء وعواطف ومواقف سلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة بطريقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة أو الدول».

[علم النفس الاجتماعي ـ د/ حامد زهران ص٣٩٥، عالم الكتب ط الخامسة، الرأي العام والحرب النفسية ص١١٣ ـ د/ مختار التهامي ـ دار المعارف].

ومعنى ذلك أن الحرب النفسية أسلوب يُمارس في السلم وفي الحرب، وفي كل مجال من هذين المجالين يتبع فيه ما يناسبه، وهي جزء أساسي من الحرب الشاملة؛ ولذلك فهي تشب قبل الحرب، وفي أثنائها، وفي أعقابها.

وتُطلق الحرب النفسية ويُراد منها هذا المعنى، بينما تطلق كلمة الحرب فقط على عملية تشابك القوات بالأسلحة المختلفة.

يقول د/ عبد الرحمن محمد عيسوي: «والواقع أن كل حرب مهما كان نوعها هي حرب نفسية، الهدف من الحرب هو هزيمة الخصم، والهزيمة حالة نفسية هدفها الاقتناع بعدم جدوى المقاومة أي الاستسلام، والتوقف عن الحرب». [دراسات في علم النفس الاجتماعي ـ د/ عبد الرحمن محمد عيسوي ص٩ ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ١٩٨٥م].

لأن الشخص إنما يقاتل ليحقق هدفًا مقتنعًا بشرعيته، وبإمكان تحققه، فإذا فقد المقاتِل هذا الاقتناع فَقَدَ الدافع الذي يدفعه نحو الكفاح، والحرب كأي أسلوب آخر لابد له من الدافع الذي يدفعه، فإذا انعدم الدافع انعدمت قدرة الفرد على استمراره في المقاومة، وإذا أمكن اقتناع الخصم بالهزيمة بوسيلة غير الحرب المسلحة لم يكن هناك داع لها.

وقريب من هذا التعريف الذي سبق ذكره تعريف البعض من أن الحرب النفسية: «هي الاستخدام المخطط للدعاية أو ما ينتمي إليها من الإجراءات الموجَّهة إلى الدول المعادية أو المحايدة أو الصديقة بهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول بما يحقق للدولة الموجِّهة أهدافها». [السابق ص٧].

ويتضح لنا من هذا التعريف أن حرب الدعاية هي حرب نفسية معنوية، ولها تأثير في نفسية الدول؛ لأنها تؤدي دورها دونما استعانة بأي شيء آخر بحكم أنها تنساب إلى الأنفس والعقول فلا يتنبه إليها الناس ولا يحذرونها، ومن ثم كان الخطر، حيث إن الدعاية من الممكن أن تتسرب إلى تيار الحياة اليومية، وأن تتغلغل بين الناس، وأن تغير وتبدل في آرائهم، وأن تتحول بهم إلى الجانب الذي تريده، فتدفع بالخصوم إلى الهزيمة النفسية، وتقف بقومها في قلعة الصمود والنصر النفسيين.

فالحرب النفسية في أي شكل من أشكالها إنما تستهدف النفس أولًا وأخيرًا، وتتجه إلى ترجيح الطاقة والصمود النفسيين في جانب، على اليأس والانهيار في الجانب الآخر؛ وبذلك يتحقق النصر للجانب الأول، وتتحقق الهزيمة للجانب الثاني، وتلك كلها عناصر نفسية بحتة، ومجال حركتها هي النفس البشرية، فهي التي تتأثر، وهي التي تؤثر، وهي التي تقرر للجسد ماذا يفعل في كل موقف، هي تقرر، وهو يخضع وينفذ.

والبشر يتفاوتون في القدرة على الصمود النفسي في الحرب، فالبعض ينهار عندما يواجه أقل نسبة من الخسائر، والبعض يصمد في مواجهة خسائر عالية، ومعنى ذلك هو أن النصر يتحقق للجانب الذي يستطيع أن يصبر ويصابر، وأن يتابع المعركة وأن يبادل عدوه الضربة بالضربة، بل بضربتين وأكثر حتى يصل به إلى الحد الذي لا يستطيع أن يتحمل فيه من الخسائر أكثر مما تحمَّل، فيعلن الهزيمة ويلقي السلاح.

وينبغي ألا تكون حرب العدو النفسية سلاحًا مؤثرًا، والذي يساعد على ذلك هو الدراسة الواعية لأساليب العدو وأغراضه، وكافة طرق الحرب النفسية الدفاعية.

فالحرب النفسية التي هي أحدث أسلحة الحرب باعتبار شدة الاهتمام بها، علمًا بأنها من قديم الزمن توجه ضد الفكر والعقيدة والشجاعة والثقة، وضد الرغبة في القتال، وهي حرب دفاعية هجومية؛ ذلك لأنها تحاول أن تبني معنويات الشعب والجنود، بينما تحطم في الوقت نفسه معنويات العدو». [ينظر للتفصيل في تاريخ هذه التعريفات: الحرب النفسية ـ د/ فهمي النجار ص ٦٦-٧٢]. [دور الحرب النفسية للسيد ٧-٨].

٢ ـ أسلحة الحرب النفسية (١):

يقول د/ زين السيد: «وللحرب النفسية أسلحة عدة، منها:

١ ـ الخداع عن طريق الحيل والإيهام؛ لأن الحيلة هي أساس فن الحرب، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾[الأنفال].

٢ ـ ثم التهذيب بواسطة القوة والإرهاب وبث الذعر والتخويف من الموت والفقر وإطلاق الشائعات.

٣ ـ ثم الإغراء والتضليل والوعد والوعيد، ومحاولة كسب العناصر المحايدة.

٤ ـ ثم نشر التخاذل وتثبيط المعنويات، والعمل على تحطيم الدوافع والبواعث للقتال».

[ينظر: دراسات في علم النفس الاجتماعي ـ د/ عبد الرحمن محمد عيسوي ص ٤٣-٦٠، والرأي العام والحرب النفسية ـ د/ مختار التهامي ص ١٦٤-١٦٩، وعلم النفس الاجتماعي ـ د/ حامد زهران ص ٣٩٦].

ومن ذلك يتضح لنا جليًّا أن الجهاد بهذه الأسلحة لا يقل أهمية ولا أثرًا عن الجهاد بالنفس والمال، بل قد يكون أشد أثرًا على الأعداء من القتال؛ ولذلك يروي الإمام أحمد بسنده عَنْ كَعْبِ ابْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ؟! فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ**». [مسند الإمام أحمد ٤٥/ ١٤٧ رقم ٢٧١٧٤، مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣، وقال الهيثمي: رواه كله أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح، وروى الطبراني في الأوسط والكبير نحوه. الجامع الصغير للسيوطي ١/ ٨٤ دار الكتب العلمية ـ بيروت، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٨٠٢ ومواضع أخرى].

«**نَضْحُ النَّبْلِ**» يعني: الرمي بالسهام، «يُقال: نَضَحُوهم بالنَّبْل إذا رمَوْهم».

[النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ـ تحقيق د/ محمود محمد الطناحي ٥/ ٧٠ ـ المكتبة الإسلامية].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْشِي وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

(١) ينظر للتفصيل في أسلحة الحرب النفسية: الحرب النفسية ـ د/ فهمي النجار ص ١٥٥ - ١٩٧.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ**».

[سنن الترمذي ٢٧٧٤، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ هَذَا الحَدِيثَ أَيْضًا عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ نَحْوَ هَذَا، وَرُوِيَ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذَا أَصَحُّ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الحَدِيثِ؛ لِأَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةَ وَإِنَّمَا كَانَتْ عُمْرَةُ القَضَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ. وسنن الترمذي (٢٨٧٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَيْدِيكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ**».

[سنن النسائي (٣٠٩٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

ومن أجل ذلك كله يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠].

فالجهاد باللسان أحد أساليب المسلمين للأعداء، وهو لا يقل أهمية عن الجهاد بالنفس والمال، وقد يكون أسرع وأشد تأثيرًا على الأعداء من القتال بتغيير فكره واتجاهه وقِيمه ومعتقداته وسلوكه تغييرًا من شأنه أن يحقق الكسب لنا والخسارة للعدو.

ومهمة الحرب النفسية تغيير الحالة الذهنية من إرادة المقاومة والقتال لدى الأعداء إلى التخلي عن إصراره وعزمه، وإلى الاقتناع بأن هزيمته واقعة لا محالة إذا قرر أنه يواجه قوة المسلمين التي لا قِبل له بها، وهكذا ينشأ لدى العدو اتجاه نفسي يسيطر على أفراده فيجعلهم يمتنعون عن استخدام قوتهم أو عن العدوان». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١١-١٢].

٣ ـ دور اليهود في الحرب النفسية بعد غزوة بدر الكبرى:

يقول أ/ خلف الله: «لما انتصر المسلمون في بدر ازداد حنق اليهود ولم يستطيعوا كتمان حقدهم فأخذوا يجاهرون بالعداوة والبغضاء، وأول من جاهر بها هم يهود بني قينقاع إذ كانوا يقيمون داخل المدينة نفسها ويظهر تبجحهم من خطابهم لرسول الله ﷺ بقولهم: «**يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ القِتَالَ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلقَ مِثْلَنَا**»، واتضح من تصرفاتهم وسلوكهم أنهم لا يطيقون وجود المسلمين بالمدينة فكان لابد من إجلائهم عنها، وقد تم ذلك في شوال سنة ٢هـ». [غزوة أُحد لخلف الله ٢٤].

ويقول د/ زين السيد: «لقد كان من شأن هذا القول الذي أثاره اليهود يهونون فيه من شأن المسلمين وانتصاراتهم أن يؤثر في نفسياتهم، وأن يهونهم عند أنفسهم حتى لا يجرؤوا على مقابلة أعدائهم مرة أخرى.

وهذا ما كان يرمي إليه اليهود، ولكن المسلمين ـ وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ـ كانوا متيقظين لتلك السبل ولم يكترثوا، بل أظهروا قوتهم في طردهم ليهود بني قينقاع وأجلوهم عن المدينة.

وحينئذ أدرك اليهود أن سياسة الإسلام أقوى من سياستهم، وأن رابطتهم أقوى من أن يؤثر فيها أي كلمة أو فتنة أو دعاية أو وشاية، ولاشك أن الإسلام ورسول الإسلام ﷺ ساس الأمة ورفع هامتها عالية ضد أي حرب أيًّا كان نوعها: نفسية، أو فعلية، ورفع روحها المعنوية بانضمامها تحت لوائه». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٢٨].

٤ ـ دور المنافقين في الحرب النفسية بعد غزوة بدر الكبرى:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران].

يقول أ/ خلف الله: «والمنافقون قوم أبناء عمومة الأنصار أبطنوا الكفر وأضمروا العداء ثم أعلنوا الإسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية وانتحلوا الإخاء المصفَّق (الصافي)، واصطفوا الود المتحول، وإن قلوبهم لتنطوي على المرض والحقد والغدر والمكر، زعموا أن سيوفهم مع المسلمين، صدقوا، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار، وزعموا أنهم خالصون خيِّرون كذبوا، هم جبناء أخساء أشرار: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]، لم يقولوا كلمة الإسلام في صدق فينتظمون في عقد الأنصار، ولم يعلنوا الكفر واضحًا فيُجري عليهم الرسول ﷺ حُكم الكفار: مذبذبين بين ذلك: لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ ولهذا كانوا أشد ضررًا وأبلغ في الأذى أثرًا، إذ أن رسول الله ﷺ ما كان في استطاعته إلا أن يكتفي بظاهرهم ويكل إلى الله ما في سرائرهم، وكان ظاهرهم السلم والإسلام وباطنهم الكفر والكفران، وظلوا على هذا شوكة في جنب المسلمين وقذى في العيون وقرحة في الأكباد. [قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى. محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ص٣٥٣ – ٣٥٧].

ولما كان المنافق يمتاز بخسة النفس والحقد والجبن الذي يمنعه من التصريح بدخيلته؛ لذا دأب المنافقون على محاربة المسلمين ويغرون الأعداء بهم، وكان على رأسهم عبد الله بن أُبي بن سلول الخزرجي الذي كان يطمع في الوصول إلى زعامة الأوس والخزرج، ولا يمكنه أن يحقق أطماعه الخبيثة ما دامت

الدعوة الإسلامية قائمة، فكان يتربص بالمسلمين الدوائر، وكانت كلما ازدادت القوة الإسلامية شوكة ازداد ابن أُبي نفاقًا، وقد نزل عليه وعلى أتباعه نصر بدر نزول الصواعق.

وكان ابن أُبي يعتد ويعتز باليهود ويدخرهم لنصرته؛ يتضح ذلك من موقفه في حادث بني قينقاع إذ أدخل يده في جيب رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لَا وَاللهِ لَا أُرْسِلكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مُوَالِيَّ، أَرْبَعَ مِئَةٍ حَاسِرٍ وَثَلَاثُمَائَةِ دَارِعٍ قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنِّي وَاللهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ**»، ولم يمنعه من نصرة اليهود وقتال المسلمين سوى جبنه وعدم ثقته في نفسه وفي قوة أتباعه» (١).

[غزوة أُحد لخلف الله ٢٠-٢١].

«حقًّا إنها الحرب النفسية الباغية من العدو المتمثل في المنافقين، وعلى رأسهم المنافق الأكبر عبد الله بن أُبي ابن سلول، لا يقول إلا ما هو في صالحه، ولا يفعل إلا ما هو ضد الإسلام ونبي الإسلام، ومن مصلحته ألا تتماسك الهمم والعزائم، ولا يجوز للنبي ﷺ وأصحابه شرعًا وعقلًا ومنطقًا أن يحقق للعدو غرضه الذي يريده، ومن هنا وجدنا الإسلام ونبي الإسلام يقود الرعيل الأول الذي تربى على مائدة الإسلام، وفي المدرسة المحمدية يقودهم إلى سحق محاولات الحرب النفسية الباغية أيًّا كان نوعها، سواء أكانت كلمة تُقال، أو شائعة تُنشر، أو ادعاءات كاذبة، أو مجادلات رديئة، أو ما إلى ذلك من أساليب الحرب النفسية التي يريدونها ويقصدون إليها». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٣٩].

٥ ـ أثر الحرب النفسية في نفوس المسلمين وموقفهم منها:

يقول د/ زين السيد: «وقف المسلمون موقفًا بطوليًّا من الحرب النفسية وقاوموها مقاومة عنيفة بشتى الأسلحة: بالصبر حينًا، وبأسلوب الدعاية الحقيقية التي لا مراء فيها ولا التواء أحيانًا أخرى، نعم تلك الدعاية لهذا الدين الجديد بواسطة الحجة والإقناع والدعوة بالتي هي أحسن، وضرب أروع الأمثلة وأسماها من خلال التصرفات السلوكية.

ومن أساليب مقاومة المسلمين للحرب النفسية التي شنها أعداء الحق عليهم سد طرق القوافل التجارية وحصارهم اقتصاديًّا، وضيَّقوا عليهم الخناق في جميع الاتجاهات، وكانت النهاية الوصول إلى عقد الهدنة بين الطرفين، وفُتحت مكة، وكان فيها ما فيها من المواقف الإسلامية في الحرب النفسية، فغزا عقول أعدائه ومعنوياتهم وقضى على إرادة القتال لديهم مجرِّدًا إياهم من كل سلاح في المقاومة، فدخل مكة، وطاف بالكعبة مكسرًا الأصنام، ناطقًا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٤٢-٤٣].

---

(١) اقتضح أمره في غزوة بني المصطلق كما سيأتي تفصيله في الحديث عن هذه الغزوة.

٦ ـ أثر الشائعات على المعنويات:

ويقول أ/ عبَّاد: «أما قول الرسول ﷺ للحباب ﷺ: «**لا تُخْبِرْنِي بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إلا أَنْ تَرَى قِلَّةً**»، ففيه بيان بأهمية المحافظة على القوة المعنوية لجيش المسلمين، والنبي ﷺ دائمًا يحافظ على معنويات جيشه ففي غزوة الخندق ـ في العام الخامس الهجري من شهر شوال ـ عندما أرسل أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة طلب منهم إذا صح خبر نقضهم للعهد أن يخبروه بأسلوب من الكلام لا يفهمه غيره ﷺ حتى لا يؤثر الخبر على معنويات المسلمين فوضع لهم كلمة السر (عضل والقارة).

واستخدم الصحابة هذا الأسلوب أيضًا، ففي معركة الجسر في ٢٣ شعبان سنة ١٣ هـ حينما هُزم المسلمون من الفرس هزيمة شديدة فقُتل ستة آلاف مسلم وغرق بالفرات أربعة آلاف، كُلِّف عبد الله بن زيد بالذهاب إلى المدينة ليخبر عمر بن الخطاب ﷺ ـ أمير المؤمنين ـ فجاء عبد الله وعمر على المنبر فقال عمر: ما وراءك يا عبد الله؟، قال: أتاك الخبر اليقين، ثم صعد إليه على المنبر وأخبره سرًّا.

لقد عرف المسلمون أثر الإشاعة في المعنويات قبل أربعة عشر قرنًا.

وقول الرسول ﷺ: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، اللَّهُمَّ بِكَ أَجُولُ وَبِكَ أَصُولُ**» يدل على قوة التوكل على الله حيث لم يذكر في ذلك الموقف الرهيب غير الله ﷻ، وهذا من أهم عوامل النصر».

[مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٩-٣٠].

٧ ـ أثر الشائعات في المجتمع وبخاصة في أوقات الحروب (١):

ويقول الشيخ أبو خوات: «للكلمة في الإسلام خطرها ووزنها وشرفها وكرامتها، نجد ذلك فيما يتصل بالوجود كله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس]، ونجده فيما يتعلق بخَلقِ الإنسان ذاته كما يقول تعالى تأكيدًا لقدرته على أن يخلق عيسى عليه السلام من غير أب، ولفتًا للعقول إلى أن ما تؤمن به دون مناقشة أكبر إعجاز مما تلح في المناقشة والجدل فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، ونجده في دليل الإيمان ذاته، فقول المشرك أو المجوسي أو النصراني أو اليهودي أو غيرهم: آمنت بالله ربًّا واحدًا وبمحمد نبيًّا ورسولًا إلى الناس كافة ينقل هؤلاء كلهم بهذه الكلمة أو مثلها من الكفر إلى الإيمان ومن الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، والكلمة الطيبة الصادقة كالشجرة الطيبة السامقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، والكلمة الكاذبة الخبيثة كالشجرة الخبيثة الرديئة لا فرع لها يرتفع، وليس لجذورها من قرار، وقد تُعرَّى الكلمة عن القسم، وقد تؤكد به، وقد تُقال في صيغة عهد أو ميثاق، فالصدق والوفاء بالعهد نتيجة الكلمة

(١) ينظر للتفصيل في أثر الشائعات: الحرب النفسية ـ د/ فهمي النجار ص ١٦٥ - ١٧٨.

الطيبة والعهد الصادق، والكذب وإخلاف الوعد ونقض العهد والميثاق نتيجة الكلمة الخبيثة والنفاق المرذول، وتلك كلها ألوان في علاقات الناس بعضهم ببعض، وقد تكون على المستوى الفردي أو الجماعي الضيق، أما إذا أريد للكلمة أن تذيع وتشيع لغرض في النفس فإن الكلمة تُقال لتصير شائعة بين الناس تُحدث بينهم أثرها الكبير، وقد يتورط كثير من الناس في الإسهام في ترويج هذه الشائعات دون قصد، وهؤلاء هم المعنيون بقوله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

[البخاري في الرقاق (٦٤٧٨)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٢٠٦)].

ومن هنا نستطيع أن نحكم بأن الشائعات الكاذبة هي قمة الكلم الخبيث الذي ينبغي للمسلم أن يطهر منه لسانه.

ومن أجل خطر الكلمة الكاذبة أيًّا كان مجال قولها ـ في حديث عادي، في شهادة زور، في افتراء على الله ورسوله، في وقيعة وسعاية بين الناس بالسوء ـ حذرت الآثار وأنذرت:

«**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحَيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**». [البخاري في الرقاق (٦٤٧٤)].

«**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ**».

[الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وأحمد عن معاذ بن جبل ﷺ (٢١٥١١)].

وقد حدث في غزوة أُحد حين انكفأ المسلمون على الغنائم يجمعونها وانكفأ معهم الرماة المحذَّرون من رسول الله ﷺ نفسه في أول المعركة ومن قائدهم عبد الله بن جبير ﷺ أثناءها... حدث حينئذ أن أقبل رجل اسمه ابن قميئة الليثي على النبي ﷺ وكان أمامه الصحابي الحافظ القارئ الجليل مصعب بن عمير ﷺ، فجعل مصعب يدافع عن النبي ﷺ حتى تمكن ابن قميئة من قتله شهيدًا بين يدي رسول الله ﷺ، فانطلق يصرخ بأنه قتل رسول الله ﷺ.

ويكفي أن نتصور مدى ما تفعله هذه الكلمات في محيط قوم مرت بهم الخطوات السابقة عليها: خلاف على البقاء في المدينة أو الخروج منها، انخذال ثلث الجيش مع عبد الله بن أُبَيٍّ، غلبة وقتال لصالح المسلمين، ثم شعور بتغير ريح النصر مع تعليق ما بقي من أمل برسول الله وحده، ارتباك في الصفوف بسبب ترك الرماة لأماكنهم، قضاء الخيالة على من بقي ثابتًا منهم في مكانه، ومنهم القائد نفسه عبد الله بن جبير ﷺ، ثم أخيرًا صرخة الصرخات تقول: إن محمدًا قتل بيد ابن قميئة الليثي... يكفي أن نتصور هذا الشريط من الأحداث لندرك مدى تأثير هذه الشائعة في صفوف المسلمين، وإذا تصورنا هذا كله لا نستبعد ما يرويه الثقات من ذهول المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضًا خطأ، ومن رجوع أكثرهم في طريق المدينة، وكما يقول الحافظ ابن حجر: إنهم صاروا بعد هذه الشائعة الكاذبة ثلاث فرق:

١ـ فِرْقَةٌ اِسْتَمَرُّوا فِي الهَزِيمَةِ إِلَى قُرْبِ المَدِينَةِ، فَمَا رَجَعُوا حَتَّى اِنْفَضَّ القِتَالُ، وَهُمْ قَلِيلٌ، وَهُمِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[آل عمران].

٢ ـ وَفِرْقَةٌ صَارُوا حَيَارَى لـمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُتِلَ، فَصَارَ غَايَةُ الوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَذُبَّ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ يَسْتَمِرَّ عَلَى بَصِيرَتِهِ فِي القِتَالِ إِلَى أَنْ يُقْتَلَ، وَهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

٣ ـ وَفِرْقَةٌ ثَبَتَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ تَرَاجَعَ إِلَيْهِ القِسْمُ الثَّانِي شَيْئًا فَشَيْئًا لـمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ حَيٌّ.

[فتح الباري ٧/ ٤١٩ كتاب المغازي باب غزوة أحد حديث رقم ٤٠٦٤].

من هنا نرى كيف تبلغ الكلمة الكاذبة إذا اتخذت لون الشائعة الذائعة، ومن هنا نأخذ الدروس فنتعلم احترام الكلمة، ومن احترام الكلمة ألا نقولها ولا نصدقها ممن يقولها إلا بعد اليقين بصدقها، حتى إذا أحدثت أثرها الضخم في المجتمع، كان الصدق لحمتها وسُداها، وتلاقى بها السبب والغاية، لكنَّ ناسًا من الناس في كل مجتمع تتلمذوا على اليهود الذين افتروا على الأنبياء وقتلوهم، وكانوا مع المنافقين وراء كل شائعة كاذبة مغرضة ضد الإسلام.

لكن ناسًا ما زالوا يأبون إلا الكلمة الشائعة التي تقوض بناء المجتمع، وتشكك في قياداته ومبادئه، وتهز من إيمان الشعوب بالقدر الذي يسمح بإيجاد فتنة في صفوفها، وهؤلاء هم العدو الخفي الأشد خطرًا من العدو الظاهر.

فيما حدث في غزوة أحد من إطلاق شائعة قَتْل الرسول ﷺ لنا عبرة ودرس كبير وعلينا أن نعيه، وبوعيه نستطيع أن ننقد كل قول يُقال، فنقبل الحق وننفي الباطل متخذين شعارنا في هذا المقام: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[الإسراء]». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٤٤-٤٩].

٨ ـ طريق التعامل مع شائعات العدو في وسائل الإعلام الخارجية:

يقول د/ الزيد: «كانت لإشاعة مقتل النبي ﷺ أثرها السلبي على بعض المسلمين، فألقى بعضهم السلاح وقال: ما الفائدة من القتال؟ وبعضهم ذهب إلى المدينة، وبعضهم أراد البحث عن عبد الله بن أُبي بن سلول؛ ليستأمن لهم من أبي سفيان، نأخذ من هذا الحذر من تصديق الإشاعات وأن العدو يبث الإشاعات، وخاصة في وقتنا الحاضر عن طريق وسائل الإعلام الخارجية، والإسلام أرشدنا إلى المنهج في التعامل مع الأخبار في الآيات التالية:

١ـ أن نطلب من المتحدث الدليل لما يقول، فلا نقبل الخبر المجرد، والله ﷻ يقول: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[النمل]، فلا يُقبل قول أحد إلا ببرهان.

٢ ـ أن يتثبت المسلم ويتبين، فلا يتأثر ويبني أحكامه على عجلة، والله جل شأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء]، فالمسلم مطلوب منه التبين وعدم تصديق أي خبر يصل إلى مسامعه.

٣- يقول الله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجُرات]، فالمستعجل يقبل الخبر ويصدِّقه في أول سماع؛ ولذلك تجده كثير الندم لكثرة أخطائه كما تشير إلى ذلك الآية الأخيرة في خاتمتها.

وإذا كنا أخذنا من فعل بعض الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ درسًا، فإننا نأخذ درسًا مهمًّا من فعل البعض الآخر، أولئك الذين أحسنوا التعامل مع الإشاعة، فلم يصدقوها ولم يتأثروا بها، بل على العكس من ذلك حولوها إلى خلاف ما يريد العدو حينما جعلوها دافعًا لمزيد العمل والجهاد والبذل، يقول أنس بن النضر ﷺ لما أُشيع مقتل رسول الله ﷺ: «**مَا يُقْعِدُكُمْ؟ قَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، ثُمّ جَالَدَ بِسَيْفِهِ حَتَّى قُتِلَ**».

فالعدو يريد من خلال الإشاعة أن يفت في عضد المسلمين، ولكن أنسًا ﷺ يقلب الأمر ويحاول أن يجعل من هذه الإشاعة ـ على فرض صحتها ـ دافعًا للعمل ودافعًا للجهاد، دافعًا للمزيد من الذود عن هذا الدين ومقاتلة الأعداء لا إلقاء السلاح والاستسلام، ومثل هذه إشاعة مقتل عثمان ﷺ في صلح الحديبية كانت سببًا في عكس ما يريد الأعداء حيث أدت إلى بيعة الرضوان، وهو عكس ما يريده العدو».

[فقه السيرة للزيد ٤٥٢-٤٥٤].

٩ ـ القضاء على الحرب النفسية بالحقائق الدامغة:

ويقول د/ الرشيد: «تؤثر الحرب النفسية في الإنسان تأثيرًا سيئًا، وهذا ما يقرره خبراء الحرب النفسية؛ لذا فإن كل خصم في ميدان القتال يستغل هذا النوع من الحرب لصالح جيشه، وهذه الحربُ لا تُؤْتِي ثمارَها المرجُوَّة إلا عند غيبة الحقائق الدامغة التي هي السَّبيل الوحيد للقضاء على الشائعات والأكاذيب.

وفي غزوة أُحد انتهز المشركون فرصةَ هزيمة المسلمين فأطلقوا الإشاعات حول مقتل الرسول ﷺ بقصد تحطيم الروح المعنوية لدى جيش النبي ﷺ، وقد كان لهذه الإشاعة أثر سيء على المسلمين، حيث انهزموا أمام المشركين في آخر المعركة.

روى الزبير بن العوام ﷺ خبر هذه الإشاعة وأثرها بين صفوف الجيش فقال: «... فَصَرَخَ صَارِخٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ: **أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ**، فَأَعْظَمَ النَّاسُ، وَرَكَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَصَارُوا أَثْلَاثًا: ثُلُثًا

جَرِيحًا، وثُلُثًا مَقْتُولًا، وثُلُثًا مُنْهَزِمًا...». [المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ٤/ ٢١٧، ثم قال ﷺ: وهذا إسناد صحيح، وله شاهد في الصحيح من حديث البراء. ينظر: فتح الباري حديث رقم ٤٠٤٣، ٧/ ٣٤٩].

وقد ردَّ الرسولُ ﷺ على هذه الإشاعة المُغْرِضَة بالحقيقة الدامغة حيث نادى بصوت مرتفع قائلًا: «إِلَيَّ يَا فُلانُ، إِلَيَّ يَا فُلانُ، أَنَا رَسُولُ الله».

[ينظر: إمتاع الأسماع ١/ ١٣٠، والسيرة الحلبية ٢/ ٥٠٥، والمدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ١٣٧، والنظرية الإسلامية في الحرب النفسية ص ٦٤-٦٥، واقتباس النظام العسكري في عهد النبوة ص ١٥٥].

وقد كان لظهور هذه الحقيقة في ذلك الظرف الحَرِج الذي يمر به المسلمون ما يأتي:

أولًا: دفع مفسدة عظيمة وهي: القضاء على الآثار المعنوية لتلك الإشاعة التي استهدفت هزيمة المسلمين.

ثانيًا: حصول مصلحة عظيمة وهي: تجميع قُوَى المسلمين المبعثرة، ورد الثقة إلى أنفسهم».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧١-٤٧٢].

١٠ ـ الحكمة من إشاعة مقتل النبي ﷺ:

يقول د/ البوطي: «لقد رأينا أن النبي ﷺ أوذيَ كثيرًا في هذه الغزوة فوقع لشقه، وشُج رأسه، وكُسرت رباعيته، وساح الدم غزيرًا من وجهه، وكل ذلك جزء من مظهر نتائج تلك الخطيئة، خطيئة أولئك المسلمين في الخروج على أوامر الرسول القائد ﷺ.

ولكن ما الحكمة في أن يشيع خبر مقتل رسول الله ﷺ في صفوف المسلمين؟!

والجواب: أن ارتباط المسلمين برسول الله ﷺ ووجوده فيما بينهم كان من القوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التماسك من بعده، فكان أمر وفاة رسول الله ﷺ شيئًا لم يخطر لهم على بال، وكأنهم كانوا يُسقطون حساب ذلك من أذهانهم، ولا ريب أنهم لو استيقظوا من غفلتهم هذه على خبر وفاة الرسول ﷺ الحقيقية، لصدع الخبر أفئدتهم، ولزعزع كيانهم الإيماني بل لقوضه في نفوس كثير منهم.

فكان من الحكمة الباهرة أن تشيع هذه الشائعة تجربة درسيَّة بين تلك الدروس العسكرية العظيمة، كي يستفيق المسلمون من ورائها إلى الحقيقة التي ينبغي أن يوطنوا أنفسهم لها منذ الساعة، وأن لا يرتدُّوا على أعقابهم إذا وجدوا أن رسول الله ﷺ قد اختفى من بينهم.

ومن أجل بيان هذا الدرس الجليل نزلت الآية تعليقًا على ما أصاب كثيرًا من المسلمين من ضعف وتراجع لدى سماعهم نبأ قتل رسول الله ﷺ، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

ولقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس، يوم أن لحق رسول الله ﷺ فعلًا بالرفيق الأعلى، فقد كانت شائعة أُحد هذه مع ما نزل بسببها من القرآن هي التي أيقظت المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة، فودعوا رسول الله ﷺ بقلوبهم الحزينة، ثم رجعوا إلى الأمانة التي تركها بين أيديهم، أمانة الدعوة والجهاد في سبيل الله، فنهضوا بها أقوياء بإيمانهم أشداء في عقيدتهم وتوكلهم على الله تعالى». [فقه السيرة للبوطي ١٩٣].

١١ ـ الحرب النفسية في الحوار بين أبي سفيان والمسلمين:

«وَقَالُوا: لـمَّا تَحَاجَزُوا أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ الانْصِرَافَ، وَأَقْبَلَ يَسِيرُ عَلَى فَرَسٍ لَهُ حَوَّاءُ (حُمرة تضرب إلى السواد) أُنْثَى، فَأَشْرَفَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُرْضِ الجَبَلِ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: **أُعْلُ هُبَلُ! ثُمَّ يَصِيحُ: أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الخَطَّابِ؟ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، أَلَا إِنَّ الأَيَّامَ دُوَلٌ، وَإِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ، وَحَنْظَلَةُ بِحَنْظَلَةَ** (يعني حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن أبي سفيان).

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله أُجِيبُهُ؟** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلَى، فَأَجِبْهُ!**»، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **أُعْلُ هُبَلُ!** فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: «**اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ** ﷻ» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **إِنَّهَا قَدْ أَنْعَمَتْ فَعَالِ عَنْهَا** (تجاف عنها ولا تذكرها بسوء، يعني آلهتهم)، ثُمَّ قَالَ: **أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الخَطَّابِ؟**

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **هَذَا رَسُولُ الله، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَذَا عُمَرُ،** فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَوْمُ بِيَوْمِ بَدْرٍ، أَلَا إِنَّ الأَيَّامَ دُوَلٌ وَإِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ.**

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **لا سَوَاءَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ،** قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ذَلِكَ! لَقَدْ خِبْنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا،** قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **لَنَا العُزَّى، وَلا عُزَّى لَكُمْ،** فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **اللهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ**».

[المغازي للواقدي ١/ ٢٩٦-٢٩٧، ابن هشام ٣/ ٩٣-٩٤، إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٥٨].

يقول د/ زين السيد: «وبهذه الكلمات كان الرسول ﷺ يهدف إلى دعم نفسية الجند المحارِب وتأكيد عزيمته في القتال حتى النصر، وفي الوقت ذاته يهدف أيضًا إلى تخريب نفسية العدو وإقناعه بعدم مشروعية أهدافه، وإقناعه بعجزه عن تحقيق هذه الأهداف.

ولذا خرج النبي ﷺ بمن كانوا معه في أُحد من المسلمين في اليوم التالي إلى **غزوة حمراء الأسد**؛ ليثبت لقريش ومَنْ معها ولكل العرب أن محمدًا ﷺ وأصحابه لم يزالوا أقوياء، وأن قريشًا في أُحد لم تجن شيئًا مما أرادته.

وعلى الرغم من النهاية التي انتهت إليها أُحد فإن سيرنا مع المعركة من بدايتها إلى نهايتها كشف لنا عن أمر خطير ومهم، وهو مدى تأثر النفوس بما يقع من أحداث، وأن الحرب ليست بالسيف والرمح فقط، أو بأدوات الحرب الحديثة فحسب، وإنما للكلمة أثر كبير في مختلف المعارك قديمها وحديثها، وهو ما يُسمى بالحرب النفسية». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٨٣].

١٢ ـ الحرب النفسية في غزوة أُحد وأثرها:

يقول أ/ شقرة: «كانت غزوة أُحد ساحةً راجت فيها الشائعات وأعظمُها شائعة موت الرسول ﷺ؛ إمعانًا من المشركين في السخرية من المسلمين، وتوهينًا لقوتهم، وزعزعة لصفهم.

والشائعات من أقوى الأسلحة التي تستخدمها الجيوش في الحروب، وحين تنجح الشائعة في المعركة تُضعف معنويات الجند، وتُوهن عزيمتهم وتخذِّلهم.

ومما يساعد على تتابع الشائعات قبولُ الناس للأولى منها، فإذا وجدت مستقرًّا لها في أسماع الناس وقلوبهم جاءت التي بعدها امتدادًا لها، حتى يجتمع منها الجم الكثير، فلا يعود للناس قدرة على رد واحدة منها، وإن كانوا من قبلُ قد كانوا يقدرون على ردها؛ لأنها باجتماعها تصبح ذات قوة منيعة لا يغلبها الناس حتى العقلاء، فإنها تجوزُ عليهم، وتفلت من عقولهم، ولا يجدون لهم سبيلًا عليها، وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يقبع بكل ثقله وعرامته وسوأته حتى على أهل التقوى والذكاء من الناس، فلا ينفعهم شيء من ذكاء أو من تقوى.

ومن ذلك ما وقع للمسلمين يوم أُحد، فقد نفذ سهم الشائعة الأولى فيهم، فلما ظهر للأعين سوء افترائهم، وتعرى للناس كذبهم، وأيقن المسلمون بحياة نبيهم ﷺ، اتبعه المشركون والمنافقون بسهم آخر هو أشد من الأول، فقالوا: غَلَّ النبي ﷺ الوحي، وامتدت يده إلى غنيمة.

ولم يتطرق لأذهان المسلمين يومًا شك في صدق نبيهم ﷺ، وأنه لا يُخفي عليهم ـ مما يُوحى إليه ـ شيئًا، فهل يُعقل أن يصدقوا مقالة أعداء الله في نبيهم ﷺ؟!

لئن صدَّق المسلمون الشائعة الأولى، فإنهم لن يصدقوا الثانية، فإن الموت حق، والمنية تخترم الناس جميعًا فما لهم لا يصدقون؟ أما الغُلول في الوحي أو في الغنيمة، فهذا شيء لا يدنو من قريب أو بعيد من أذهانهم، فإنهم لا يصدِّقون مثل هذا في بعضهم البعض، فكيف يصدِّقونه في نبيهم ﷺ؟! فما من صحابي ممن لازموا الرسول ﷺ سفرًا وحضرًا إلا وقد روى عنه شيئًا، وقد سمعوا منه تحذيرًا شديدًا في كتمان شيء مما علِموا ونقلوا عنه، وقد علموا جميعًا من أنفسهم الزهد والورع اللذين تعلموهما من سلوك نبيهم ﷺ، فأيقنوا أنهم فوق الشبهات، وأنهم أكبر من كل الدنيا، فهي عرضٌ يزول ولا يبقى منه شيء، فكيف يقعون تحت تأثيره، وقد أنبأهم نبيهم ﷺ بأن من رَغِبَ عن الدنيا أحبه الله، ورأوا فيه ﷺ المرآة الصادقة الصافية لكل ما أدراهم وأخبرهم به، ورأوا أنفسهم في هذه المرآة على الصورة التي رسمها لهم الرسول ﷺ بقلم الوحي». [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٨١-٣٨٢].

ويقول د/ السيد: «إن العدو أيًّا كان يستعمل شتى وسائل القتال في الهجوم أو الدفاع من أجل أن يقضي على عدوه أو يدافع عن نفسه، والعالَم الآن يجعل من الحرب الباردة وسيلة فعَّالة في الإعداد للمعارك، والحقيقة أن هذا الجانب في القتال ليس وليد العصر الحاضر، وإنما هو موجود منذ زمن قديم، ولئن كانت أُحد إحدى المعارك الإسلامية الشهيرة، وقد مضى عليها الآن أكثر من ألف وأربعمائة عام، فقد كانت الحرب النفسية فيها ذات خطر وأهمية بالغين، ونحن إذ نهتم بكشف هذا الجانب؛ لأنه موضوع بحثنا، وكان سردي لمعركة أُحد التي أشرت إليها في الفصل السابق سبيلًا إلى أن أنبه إلى الجوانب النفسية في هذه المعركة وسأتتبع بعض المواقف التي ذكرتُها في عرض مراحل الغزوة وأستخلص منها مدى تأثر النفوس بالكلمة أو الإشاعة، موضحًا بعض النتائج التي تنجم عنها تلك الأمور:

(أ) كان السبب الرئيس لغزوة أُحد هو انتقامهم من محمد ﷺ وأصحابه وتأثرهم لقتلى بدر، ولا يستطيع أَحد أن ينكر عداوة قريش لمحمد ﷺ من أول يوم جاءت فيه الدعوة، فقد جاءهم ﷺ بما لا يتفق وميولهم حيث دعاهم إلى تكاليف ربما تكون شديدة على النفوس، ونهاهم عن شيء ألفته أنفسهم، وعاب آلهتهم وسفَّه أحلامهم، هذا وغيره كان من شأنه أن يشعل نار العداء بين قريش ومحمد ﷺ، ثم كانت المواقف الأخرى بعد ذلك تزيد نفوس المشركين عداء لرسول الله ﷺ، وما كان في بدر قد غاظ المشركين وهم في نظرهم ونظر مَنْ حولهم أقوياء كثيرو العَدد والعُدة وأصحاب مكانة ومنزلة لهم السيادة على معظم الجزيرة العربية، كانوا يظنون أنهم سينتهون من محمد ﷺ وأصحابه في وقت وجيز ففوجؤوا بالهزيمة المنكرة، ممن كانوا يعتبرونهم ضعفاء، قُتل منهم مَن قُتل وأُسر مَنْ أُسر وولَّى الباقون هاربين، كان من شأن هذا أن يزرع في نفوس قريش حقدًا وعداوة وبغضاء ضد الإسلام والمسلمين، فلم يستريحوا، ولم يستقر لهم بال، ولم تطمئن لهم نفس، كان الأثر النفسي الذي خلَّفته هزيمة المشركين في بدر من الأسباب القوية التي جعلت قريشًا تخرج إلى أُحد من أجل الانتقام وغسل العار، وحدت بقريش أنها أوقفت من أموالها الكثير من أجل هذا للغزوة فكانت النفسيات مشحونة بالانتقام في أدنى التحام، وتسبب كذلك عن هذا الغيظ الدفين في قلوب قريش أنها استعانت في أُحد ببعض القبائل المجاورة والأحابيش والعبيد عن طريق الإغراء، وبعد عِلم الرسول ﷺ وصحابته بنبأ قدوم قريش تأثرت نفسياتهم، فالمنافقون وضعاف الإيمان كان تأثرهم سلبيًّا حيث جعلهم يفزعون ولا يستريح لهم بال من شدة الهول، بل كان ما هو أشد من ذلك حيث رجع عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث الجيش وهم في الطريق إلى أُحد يقول: **أيعصيني ويطيع الغلمان، ويشيع أنها ليست حربًا ولا قتالًا**؛ لتوهين الصف المجاهد في سبيل الله بأسلوب من أساليب الحرب النفسية التي يستخدمها المنافقون في هذا المجال.

وقد يكون التأثر إيجابيًّا من أقوياء الإيمان حيث يدفعهم ذلك إلى شدة الحماس وحب الدفاع عن الدين، فقد ظهر التأثر واضحًا حين صمم الكثيرون من أهل المدينة على الخروج للقاء الأعداء وهم ينتظرون إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، فقد تسابقوا في الخروج حتى الغلمان منهم، وكان انتصارهم في بدر من أشد العوامل النفسية التي دفعتهم إلى الخروج إلى أُحد، ولا ننسى فريق المؤمنين الثاني الذي كان يفضل الانتظار بالمدينة لا عن ضعف ولا تخاذل ولا ذلة، وإنما كانوا يرون هذا لخدمة المعركة حيث يشترك الجميع في الدفاع عن القاعدة الصلبة التي لا يعرف العدو تفاصيل ميدان المعركة فيها.

(ب) في سير قريش إلى أُحد ووصول الخبر إلى رسول الله ﷺ عن طريق العباس ﷺ، ورعي إبل قريش لزروع المدينة، وما جاءت به عيون النبي ﷺ التي أرسلها تخبر بمقدم قريش مؤكدة ذلك، كان له أثره النفسي أن النبي ﷺ وهو القائد الملهم أدرى بطبيعة النفس البشرية وأعرف بظروفها رأى ﷺ بثاقب فكره أن وصول خبرٍ مثل هذا إلى ناس المدينة من شأنه أن يجعل فيها نوعًا من الاضطراب والخوف، وربما يؤثر ذلك في نفوس الجند فحاول أن يستكتم الخبر حتى تظل قوة المسلمين متماسكة.

(ج) من خلال عرضنا لبعض البطولات من بعض المسلمين نستطيع أن نستخلص منها أثر تلك البطولات بعد أن علمنا سبيلها وقوة الإيمان وسلامة العقيدة فيها، أما أثرها فهو رفع الروح المعنوية في نفوس القائد والجند حيث يرى الجميع هذه البطولات أمام أعينهم فترتفع الروح المعنوية ويكون حرصهم على الموت سببًا في إقدامهم وصمودهم، فأبو دجانة ﷺ مثلًا من المسلمين الأبطال الذين خدموا المعركة بروح إيمانية عالية، وكان في قتله لبعض المشركين ما جعل المسلمين يثقون بأنفسهم وثوقًا تامًّا، وأما أنس بن النضر ﷺ فقد كان مؤثِّرًا في المسلمين الفارين والذين ألقوا السلاح حتى رجعوا إلى المعركة مرة أخرى بعد أن ارتفعت عندهم الروح المعنوية.

(د) وذكرنا أثناء عرضنا لغزوة أُحد أن ابن أُبي عاد من الطريق بأصحابه تاركًا المسلمين وحدهم أمام الأعداء بالحجة الكاذبة التي ادعاها وهي ما حكاها القرآن بقوله: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا تَّبَعْنَاكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٧]، وكان أتباع ابن أُبي ـ كما حكت الروايات ـ يصل إلى ثلث الجيش تقريبًا؛ ولهذه الفعلة من ابن أُبي أثرها الشديد على نفوس المؤمنين، وقد كان ذلك الشقي مخادعًا لهم حيث أغراهم أولًا بالخروج معهم، وفي رجوعه من الطريق كانت مفاجأة للمسلمين، وكان هذا العمل من شأنه أن يفت في أعضاد المسلمين وأن يؤثر فيهم نفسيًّا، فقد حاول بعض المسلمين أن يثنيه عن عزمه هذا فأبى، ولو استطعنا أن نصور نفوس المسلمين وهم في حالتهم تلك وقد فقدوا ثلث الجيش في مواجهة عدو عاتٍ متجبر، إن النفوس حينئذ تضعف، وكأن رسول الله ﷺ أحس بما يؤثره موقف ابن أُبي في نفوس المسلمين فسارع إلى طمأنينتهم.

والحق أن رجوع ابن أُبي في نظرنا كان في خدمة المسلمين، فلو حضر المعركة ثم تخلى عنهم وهم فيها لكان لذلك ردُّ فعلٍ شديد، وربما لِضَعْف إيمانه وسوء نيته أن يفعل فعلًا في أثناء معركة يقضي به على المسلمين، فكان رجوعه من الطريق يجعل المسلمين يستعدون للقاء عدوهم بأنفسهم، وإذا أضفنا إلى موقف ابن أُبي موقف أبي سفيان وهو يحاول أن يخذل بين صفوف المسلمين حينما طالب الأنصار أن يتخلوا عن المهاجرين، ولو نجحت هذه الفكرة اللئيمة لتركت أثرًا غير محمود، ولكن الله ﷻ ألهم الأنصار أن يردوا على أبي سفيان بما يخيب أمله ويبدد أمانيه.

(هـ) حاول المشركون أن يُميتوا الحماس من نفوس المسلمين فنادوا فيما بينهم بتلك الإشاعة المغرضة أن محمدًا ﷺ قد قُتل، ويا لها من إشاعة حينما يحس الجنود بفقد قائدهم في ميدان المعركة، إن العِقد ينفرط والآمال في النصر تتبدد والجموع تتفرق؛ ولذلك رأينا شدة وَقْع الخبر على المسلمين، فسارع بعضهم بالفرار إلى أن وصل إلى حيطان المدينة، وبعضهم لجأ إلى أُحد، وفريق ثالث ألقى السلاح وهو يقول: ماذا نفعل بالحياة بعد رسول الله ﷺ.

لقد أدت الإشاعة دورها أول الأمر لولا ما كان من أنس بن النضر ﷺ الذي صرخ في الناس يحثهم على الجهاد، ويوضح لهم أن المسلمين يقاتلون من أجل العقيدة والإيمان لا من أجل محمد ﷺ، ووجد لندائه ملبيًا، ولدعوته مجيبًا، فرجع الفارون ووثب القاعدون، وأخذ كلٌّ بسلاحه مدافعًا ومنافحًا.

يقول الصاغ محمد فرج: «عندما أذاعت قريش أن رسول الله ﷺ قد مات أحس المسلمون بأنهم قد فقدوا قائدهم، وبالتالي فقدوا السيطرة على أنفسهم، ثم على المعركة وتولاهم الخوف والهلع، وأسرعوا يختفون من أرض المعركة بينما ألقى البعض السلاح، وعزفوا عن القتال، ولا شك في أن قريشًا كسبت كثيرًا من وراء هذه الإشاعة التي أذاعتها لتهز بها قلوب المسلمين، وتقضي على بعض حماستهم في الحرب، وتقلل من عزيمتهم في القتال».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ للصاغ محمد فرج ص ١٦١-١٦٣ ط دار الفكر العربي].

لقد وجدت هذه الإشاعة أُذنًا صاغية من ضعفاء الإيمان حتى تمنوا أن لم يكونوا حضروا هذه المعركة.

يقول أمين دويدار: «لما انهزم المسلمون انتهز الشيطان هذه الفرصة فجعل يوسوس في القلوب الواهنة ويستذل النفوس الضعيفة حتى قال بعض المسلمين: «**علام نقاتل؟ إذا كان محمد قد قُتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمِّنوكم**»، حتى ظن آخرون أنها النهاية، وأنها الساعة الفاصلة بين الإسلام والكفر، وقالوا كما أخبر عنهم القرآن ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران: ١٥٤]».

[صور من حياة الرسول ﷺ لأمين دويدار ص ٣٦٠].

(و) رأت قريش أنها أصابت فرصة للنَّيْل من محمد ﷺ وأصحابه، فأخذ أبو سفيان ينادي متباهيًا، ينادي رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وكانت خطة النبي ﷺ أولًا ألا يجيبه أحد حتى لا يعاود المشركون الكرة، حينئذ أخذ الزهو من أبي سفيان مأخذه فادعى أن من ناداهم قد ماتوا، وظن بذلك باطلًا أن الإسلام قد انتهى بانتهاء هؤلاء، حينئذ أمر النبي ﷺ عمر رضي الله عنه أن يرد عليه لينزع من نفسه الفرحة العابرة، وكان أبو سفيان كلما قال مقالة أمر النبيُّ ﷺ عمرَ رضي الله عنه أن يرد عليه، وكان أخيرًا التواعد بين الفريقين ببدر القادمة، قالها أبو سفيان أولًا ليخيف المسلمين في زعمه ويُضعف من عزيمتهم، فرد عليه عمر رضي الله عنه فيؤكد له أن قوة الإسلام لا تزال باقية.

كذا كان اهتمام قريش بإماتة الروح المعنوية في نفوس المؤمنين، وكذا كانت إرادة الله ﷻ لتخيب آمال المشركين: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

(ز) رجعت قريش من أُحد لتشيع أثناء عودتها بين العرب أنها تركت محمدًا ﷺ وأصحابه في جراح لا تبرأ وضعف لا يقوى وهزيمة منكرة؛ وكان لهذه الإشاعة بين القبائل دورها، لكن النبي ﷺ رد على تلك الإشاعة بشيء عملي حيث أمر كل مَنْ حضر أُحدًا ممن بقي واستطاعت رجلاه أن تحملاه بالخروج إلى **غزوة حمراء الأسد**، وهناك مكث النبي ﷺ بضعه أيام؛ ليُظهر أن الإسلام لا يزال بخير، وأن أهله لا يزالون أقوياء، وأن قريشًا لم ولن تصل إلى ما تهدف إليه في زعمها القضاء على الإسلام والمسلمين.

لما وقع بالمسلمين ما وقع في غزوة أُحد خشي النبي ﷺ أن يدفع الطمع قريشًا إلى الكرة عليهم وهم في هذه الحالة من الزعزعة والاضطراب، ومن قله الناصرين من الأولياء وكثرة المتربصين من الأعداء، ورأى النبي ﷺ أنه لابد من عمل سريع يزيل أثر الوهن من قلوب أصحابه، ومن علاج حاسم حازم يعيد إلى المسلمين ثقتهم، ويستردون به ما فقدوا من الهيبة في نفوس أعدائهم، ويوقعون الرعب في قلوبهم، فعزم على أن يخرج بأصحابه في أثرهم على رغم ما أصابهم من القَرْح وما كان بهم من الإعياء والجهد.

وكان النبي ﷺ يرمي بذلك إلى غرضين: أن يقطع الطريق على المرجفين، فلا يدع فرصة لأراجيفهم حتى تعمل في نفوس أصحابه، وأن يُشعر قريشًا ومَنْ والاها أن المسلمين لم يضعفوا، وأنهم على رغم ما أصابهم لا تزال بهم قوة يستطيعون بها أن يُرهبوا عدو الله وعدوهم، ورسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لا يُصِيبُ الْمُشْرِكُونَ مِنَّا مِثْلَهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْنَا**». [سيرة ابن هشام ٣/ ٦١٥].

فالنبي ﷺ لم يضع منهجًا جامدًا محددًا، ولو كان ذلك كذلك لفضَّل الدفاع عن المدينة على أساس خطته الأولى والثانية، ولكنه ﷺ سرعان ما تركها وابتكر خطة ثالثة، ومهمة القائد الرئيسة اختيار بين احتمالات متعددة، رأى النبي ﷺ أن الخروج إلى مكان بعيد يمكن أن يُوقع الرعب في قلوب الأعداء فلا يفكروا في الهجوم على القاعدة الأمينة، ولولا القوة ما استطاع الخروج إلى هذا المكان البعيد.

لذلك أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في اليوم التالي لأُحد في الناس بطلب العدو.

واستجاب الصحابة رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران].

ثم جاء دور الحرب النفسية بين الرسول ﷺ والمشركين حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

لما وصل النبي ﷺ وأصحابه **حمراء الأسد** أمرهم في النهار بجمع الحطب، فإذا جاء الليل أمر أن يوقِد كلُّ رجل منهم نارًا، فكانت النيران تُرى من البعد البعيد وقد ملأت الأرجاء بأضوائها، وخدعت العدو بالألائها حتى خُيِّل لأي شخص أن المسلمين ألوف مؤلفة، وأعداد لا تُحصى ـ ولا تُعد، فذهب ذِكْر معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكان ذلك مما كبت الله به عدوهم.

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٣٨٠].

وكان مما قيض الله للمسلمين أن قبيلة «**خزاعة**» كانت مسالمة للنبي ﷺ ومصالحة له، فمر به معبد الخزاعي فقال: «**يَا مُحَمَّدُ، لَقَدْ عَزَّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ فِي نَفْسِكَ وفِي أَصْحَابِكَ، وَلَوَدِدْنَا أَنَّ اللهَ أَعْلَى كَعْبَكَ، وَأَنّ الْمُصِيبَةَ كَانَتْ بِغَيْرِكَ، وَلَوَدِدْنَا أَنَّ اللهَ عَافَاكَ فِيهِمْ**»، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ـ موضع على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة ـ وقد ندموا على أنهم لم يستأصلوا محمدًا ﷺ وأصحابه وجعلوا يتلاومون، ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا! أصبتم شوكة القوم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وقد بقيت منهم رؤوس يجمعون لكم، فلا محمدًا أصبتم ولا الكواكب أردفتم، أي أنكم لم تأسروا أحدًا من النساء، فبئس ما صنعتم، وأجمعوا أمرهم على الرجوع ليستأصلوا بقية القوم. [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٣٨١].

وكان ما كان من أمر معبد الخزاعي، فأراد أبو سفيان أن يُرهب المسلمين ويثنيهم عن ملاحقته فانتهز فرصة ركب من التجار مروا به قاصدين إلى المدينة فأوعز إليهم أن يردوا عنه محمدًا ويخوفونه كرة قريش عليه وعلى أصحابه لتستأصلهم ووعدهم أجرًا على ذلك، فلما مر هؤلاء الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد أخبروه بما قال لهم أبو سفيان، قال لهم: إذا وافيتم محمدًا فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فلم يأبه رسول الله ﷺ بذلك وقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، وظل النبي ﷺ وأصحابه في معسكرهم ثلاث ليال حتى علموا أن قريشًا قد انصرفت إلى مكة، فعادوا إلى المدينة ليدخلوا مرة أخرى أرفع رؤوسًا وأعز جانبًا».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٣٨١، وسيرة ابن هشام ٣/ ٦١٦].

وهكذا تزعزعت همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يُبقوا على نصرهم بأُحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة، ورجع محمد ﷺ إلى المدينة وقد استرد كثيرًا من مكانة تزعزعت على أثر أُحد.

[حياة محمد ﷺ لمحمد حسين هيكل ص ٣١٣].

(ح) انتهت المعركة وعاد المسلمون إلى المدينة مثخنين بالجراح، يرون أنفسهم قد قصرت في الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ حين ذهب بعضهم إلى جمع الغنائم، وسارع بعضهم بالفرار من أول المعركة، ولجأ فريق منهم إلى أُحد ليحتمي به، ووجد المنافقون واليهود جوًّا ملائمًا لنفث سمومهم وبث إشاعتهم، فأخذوا يلومون المسلمين على خروجهم مع رسول الله ﷺ ويزكون أنفسهم بالقعود.

قال أمين دويدار: «رجع المسلمون إلى المدينة.... وكان من الطبيعي أن يشمت بالمسلمين أعداؤهم في المدينة وفيما حولها، وأن تمتلئ بالفرح قلوبهم وهم يرون المسلمين يدخلون المدينة واهنين مكدودين، يسودهم الفتور والصمت، وتغشاهم الكآبة والوجوم، ويملؤهم الغيظ والغم من سوء ما صنعوا بأنفسهم.

ولم يشأ اليهود والمنافقون أن يخفوا شماتتهم وفرحهم فيما أصاب المسلمين، فجعلوا يعالنون بها ويجاهرون، بل انتهزوا فرصة سانحة للنَّيْل من الإسلام وأهله، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء في رسول الله ﷺ وفي دعوته وفي أصحابه، فأخذ اليهود يشككون في رسول الله ﷺ وفي دعوته قائلين: **لو كان نبيًّا ما ظُهر عليه ولا أُصيب منه ما أُصيب، ولكنه طالبُ مُلك تكون الدولة له وعليه.**

وَجَدَّ المنافقون في التفريق عن رسول الله ﷺ، وفي تحزين المسلمين على من مات منهم من شهدائهم، وبالغوا في اللوم والنكير عليهم متظاهرين بأنهم كانوا أحزم وأحكم حين رجعوا من الطريق ولم يحضروا القتال، وأن المسلمين لو أطاعوهم فرجعوا كما رجعوا ما أصابهم الذي أصابهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران].

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٣٧٨].

ولم يقف التشكيك عند هذا الحد بل أخذوا يشككونهم في النعيم الذي أعده الله لهم.

كما رأينا في قول حاطب بن أمية بن رافع: **بأي شيء تبشرونه؟ بجنة من حرمل! غررتم والله هذا الغلام من نفسه.** [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٠٤].

والحرمل نبات حبه كالسمسم، وقول حاطب المنافق «جنة من حرمل»، يريد الأرض التي دُفن فيها وكانت تنبت الحرمل، أي ليس له جنة إلا ذاك». [الروض الأنف ٢/ ١٣٩].

وبعد: فهذا ما يمكن أن نستخلصه من التأثيرات النفسية التي كانت في غزوة أحد، أرأينا كيف أن المشركين حاولوا أن يثأروا لأنفسهم بشتى الوسائل والأسلحة، ورأينا إلى جانب ذلك تماسك المسلمين وتعاضدهم أمام الشائعات المغرضة والأكاذيب المضللة، والأخبار الكاذبة.

والحقيقة التي يعترف بها الجميع أن للقيادة الحكيمة أثرًا في تماسك الجند وقوتهم، وأن قيادة رسول الله ﷺ لمن أعظم القيادات وأمهرها على الإطلاق، وإنما يصدر في كل تصرف من تصرفاته عن وحي من الله ﷻ الذي وعد بعصمته ووعد بحفظ القرآن الكريم.

والحقيقة أن الذي يستعرض مواقف غزوة أُحد ويتأمل ما كان فيها من الحوادث والصور يعتقد أنها كانت شيئًا لابد وأن يكون، ودرسًا لابد وأن يتلقاه المسلمون وهم في أول عهدهم بالقتال في سبيل الله، فقد كانت الهزيمة في أُحد أول هزيمة تصدم المسلمين الذين نصرهم الله ببدر وهم قليل، فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو الأمر الطبيعي الذي لا يتخلف أيًا كانت الأحوال والظروف ومهما يكن تصرفهم وبُعدهم عن أسباب النصر الحقيقية من استعداد وطاعة وتغلب على شهوات النفس ومطامعها وثبات للشدة واتجاه إلى الله، فأراد الله ﷻ أن يُعلِّم عباده المسلمين أن النصر لا يكون إلا لمن أخذ بأسباب النصر، وأن الهزيمة لا تكون إلا على من يتعرض لأسباب الهزيمة، وأن الله لن يتخلى عن المؤمنين ما داموا يخلصون له النية والعمل، فإذا ما شغلهم عنه شاغل من أعراض الحياة الدنيا فإنه يتخلى عنهم بمقدار ما يشغلهم، ولا يكون معهم حتى يكونوا معه بقلوبهم وحواسهم وظاهرهم وباطنهم.

لقد بلغ الأمر بالمؤمنين في هذه الغزوة مبلغه حيث كانت الصدمة العنيفة التي استولت على نفوس الكثيرين منهم حينما حلت بهم الهزيمة بعد النصر الذي أصبح في قبضة أيديهم، وقد كانت نفوسهم متشبعة بانتصارهم الكبير في غزوة بدر، وكأنهم أحسوا في أنفسهم أن النصر حليفهم في كل المواقف؛ لذا رأينا كيف أنهم أجبروا النبي ﷺ على الخروج في غزوة أُحد، وبخاصة الشباب منهم، وقد تملكهم الفرح الشديد حينما كانت الدولة لهم في أول الأمر قبل أن يترك الرماة أماكنهم بحثًا عن الغنيمة، فانتهزها المشركون فرصة واتخذوا من ترك الرماة لأماكنهم سببًا لأن يُلحقوا الهزيمة بالمسلمين، وهنا كانت الطامة الكبرى، وبدأ التأثير النفسي الشديد بصورة عكسية يتملك المسلمين حتى ألقى بعضهم السلاح وفر البعض منهم إلى المدينة لم يرده سوى حيطانها، وكانت البقية الباقية تكافح عن رسول الله ﷺ، فكان لابد وأن تتنزل هذه الآيات لتوقظ المسلمين من غفوتهم، وتدفعهم إلى الثقة في أنفسهم وترفع من معنوياتهم بضرب المثل بالأمم السالفة حينًا، وبيان أن الحرب دول حينًا آخر، وترشدهم أن الجنة لا تُنال إلا بارتكاب المصاعب، ولابد أن يختبر الناس ليميز الله الخبيث من الطيب، فكانت هذه الآيات بمثابة العلاج النفسي بالنسبة للمسلمين وإنقاذًا لهم من الهوة التي سقطوا فيها؛ ونتيجة لذلك تجمع المسلمون حول رسول الله ﷺ وخرجوا معه إلى غزوة حمراء الأسد في اليوم التالي للمعركة وجراحهم لازالت تنزف من ضربات الأمس». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٨٤-٩٥].

١٣ ـ شن الحرب النفسية على الأعداء إذا دعت الحاجة إلى ذلك:

يقول د/ الرشيد: «المرء بطبيعته البشرية يتأثر ـ غالبًا ـ بما يسمع أو يرى؛ ولذا جرت عادة المتحاربين أن يعمد كل خصم للتأثير على خصمه، بوسائل شتى تعتمد على الخداع وذلك لإضعاف معنوياته.

وقد أدرك الرسول ﷺ نفسية المقاتل، وأن لها أثرًا كبيرًا في حالة الاشتباك مع الخصم، كما تتوقف عليها نتيجة الحرب.

كما أدرك ﷺ أن الروح المعنوية لدى المقاتل، تُعَدُّ سلاحًا فَتَّاكًا في المعركة، يفوق الأسلحة المادية؛ لأن لها أثرًا واضحًا في كسب النصر أو خسرانه. [ينظر: العبقرية العسكرية لفرج ص ٥٦٤].

ولهذا أخذ الرسول ﷺ بهذا الأسلوب في بعض غزواته، وذلك لما في تطبيقه من تحقيق المصلحة لجيش المؤمنين ودفع المفسدة عنه.

وقد قرَّرَ ﷺ هذا الأسلوب بقوله وفعله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**». [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٩، ١٧٤٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٦، ٢٦٣٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٥)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٣، ٢٨٣٤)، وأحمد عن علي رضي الله عنه (٦٩٩، ١٠٣٧)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه (٨٠٥٠، ٢٧٣٧٠)، وعن أنس رضي الله عنه (١٢٩٢٨،١٢٩٢٩)، وعن جابر رضي الله عنه (١٣٧٦٥، ١٣٨٩٦)، وعن كعب بن مالك رضي الله عنه (٢٦٦٣٤)، وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها (٢٧٠٥٠)].

ففي هذا الحديث إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة.

[ينظر: فتح الباري ٦/ ١٥٨].

قال النووي رحمه الله: «واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل». [صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٤٥].

وقد دل العقل ـ أيضًا ـ على جواز الخداع في الحرب، وفي ذلك يقول الأنصاري رحمه الله: «وأما العقل فلا خلاف بين العقلاء أن ما حصل من الظَّفَرِ بحسن الحيلة، ولطف المكيدة مع سلامة النفس، وحفظ الجنود والراحة من التعب، أحسن وأجمل وأعلى في الفضل وأرفع في الرتبة؛ لأن الخارج للقاء العدو ومبارزة الفرسان، وإن ساعده الظَّفَرُ وحَفَّهُ النصر، ففي مخاطره من مكروه المصايب وعضاض السيوف وألم الجراح ومضاض الحروب ومغاورة الأبطال، غاية المشقة ونهاية المخاطرة».

[تفريج الكروب في تدبير الحروب ص ٢٧].

وأما من الناحية الفعلية، فإنه يُلاحظ أن الرسول ﷺ قد شَنَّ الحرب النفسية ـ وهي نوع من المخادعة ـ بعد غزوة أحد للتأثير على معنويات قريش، حيث خرج ﷺ بالمسلمين إلى حمراء الأسد،

ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران، فكانت تُشَاهَدُ من مكان بعيد، وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خُيِّلَ لقريش أن جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا قِبَلَ لهم به، فانصرفوا وقد ملأ الرعبُ أفئدتَهم.

[ينظر: تاريخ الطبري ٢/ ٥٣٥، وعيون الأثر ٢/ ٣٧، والسيرة الحلبية ٢/ ٢٥٧، والعبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ص ٣٧٩، وغزوة أحد للدكتور محمد أبي فارس ص ٥١].

قال ابن سعدٍ رحمه الله: «ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد... وكان المسلمون يُوقِدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهم». **[الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٩، وينظر: المغازي للواقدي ١/ ٣٣٨، وعيون الأثر ٢/ ٣٨]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤١٨-٤٢٠].**

١٤ ـ الحرب النفسية وحرب الدعايات في حمراء الأسد:

يقول د/ زيدان: «رأينا كيف حَمَّلَ أبو سفيان بعض المشركين المتوجهين إلى المدينة رسالة لإبلاغها إلى رسول الله ﷺ، خلاصتها أنه وجيشه عازمون على الرجوع إلى المدينة لإبادة المسلمين جميعًا، وأراد أبو سفيان برسالته تلك إرهاب المسلمين وإحداث الخلاف فيما بينهم فيما يجب أن يفعلوه.

وقد فَطِن النبي ﷺ لهذا الغرض ـ غرض أبي سفيان ـ فقال وقال معه أصحابه الكرام: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

كلمة قالها إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أُلقي في النار فَكَفَتْه، وقالها محمد ﷺ وأصحابه فَكَفَتْهم، ثم نهض النبي ﷺ لملاحقة أبي سفيان وجنده.

وهكذا جمع بين الأمرين: توكل كامل على الله، وأَخْذٌ بالأسباب بملاحقة العدو، فعلى جميع الدعاة وجماعتهم المسلمة أن لا تخيفهم دعايات العدو؛ ولا تزلزل أقدامهم ولا تُهن عزائمهم، وإنما عليهم أن يتذكروا عناية الله بهم، وكفايته لهم فهو خير مَنْ تُوكَلُ إليه الأمور، وبالتالي فليقولوا بألسنتهم وبقلوبهم: حسبنا الله ونعم الوكيل مع أَخْذٍ بالأسباب المادية.

إن أهل الحق، أهل الدعوة إلى الله، لا يمكن أن تحولهم عن دعوتهم ومسيرتهم فيها دعايات أعداء الدعوة، ولا قوتهم؛ لأن قوة الله أكبر من قوتهم، ولأنهم يقومون بما يفرضه الله عليهم من واجب الدعوة إليه.

أما النتائج، أما ما قد عسى أن يحدث، أو ما يصيبهم، فهذا كله موكول إلى الله يحكم فيه وهو خير الحاكمين». **[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٣٤].**

ويقول د/ الحميدي: «إن هذا الجواب من النبي ﷺ يدل على صدق التوكل وعمق اليقين ورسوخ الإيمان وقد عبر النبي ﷺ بهذا الجواب عن شعور الصحابة رضي الله عنهم الذين لم يخرجوا وهم على تلك

الحال إلا ثقة بالله تعالى وتوكلًا عليه، وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين في هذا الموقف بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦].

ويقول أ/ حوى: «والملاحظ أن الحرب النفسية كانت جزءًا من مخططات الرسول ﷺ ومخططات المشركين، فليست إذن هي وليدة الفكر المعاصر، بل نقول: إن كثيرًا مما يظن أنه وليد الفكر المعاصر ليس هو كذلك، فهناك منطق البداهة والغريزة ينطلق الناس عنه دائمًا أبدًا، وإنما التعقيد والتنظيم يتضخمان على مدى العصور.

والملاحظ أن الحرب النفسية لم تؤثر في رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، وإنما أثرت بالمشركين فقط، وذلك هو الوضع الطبيعي الذي ينبغي أن يكون عليه الحال، فإذا ما حدث غير ذلك فالسبب المرض عند المسلمين.

بل نقول: إن قوله ﷺ: «**نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**» [البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)].

يدل على أن الغلبة في الحرب النفسية هي الأساس وهي النصر، ولكن ذلك لا يكون للمسلمين إلا إذا تأسوا برسول الله ﷺ وأصحابه في طلب الموت وإحسان الحركة السياسية والعسكرية».

[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٠١].

١٥ـ ما يجب على المسلمين تجاه الأراجيف والأكاذيب المضللة:

يقول د/ زين السيد: «بعد نكسة المسلمين في أُحد عادوا إلى المدينة بجراحهم وآلامهم تاركين وراءهم شهداءهم في قبور المعركة ليجدوا أمامهم أراجيف المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن الممكن أن يصلوا إلى التشكيك في وضع المدينة كله.

فوجه القرآن النداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن طاعة أعداء الله وأعدائهم مبينًا لهم نتيجة ذلك، وأمرهم بالتمسك بتعاليم دينهم، كما بشرهم بسوء عاقبة أعدائهم، فقال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران].

قال الآلوسي: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان فضائله.

وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه، ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافي تلك الطاعة، فيكون الزجر على أكمل وجه.

والمراد من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: إما المنافقون؛ لأن الآية نزلت ـ كما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه ـ حين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة: **ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم**، والتعبير عنهم بذلك قصدًا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم.

وإما أبو سفيان وأصحابه، وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم، وإلى ذلك ذهب السدي.

وإما اليهود والنصارى، فالمراد حينئذ لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ولا تصدقوهم بشيء في ذلك، وإليه ذهب ابن جريج.

وحكي أنهم كانوا يلقون إليهم الشبه في الدين ويقولون: **لو كان محمد ﷺ نبيًّا حقًّا لما غُلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يومًا عليه ويومًا له**، فنهوا عن الالتفات إليها.

وإما سائر الكفار، وذهب إلى جواز ذلك بعض المتأخرين. [تفسير الآلوسي ٤/ ٨٧].

والرأي الأخير للآلوسي والذي يرى فيه أن المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «سائر الكفار» هو أولى بالقبول، وإن كانت الآية التي معنا تتحدث عن غزوة أُحد وكان للمنافقين واليهود ضلع كبير في المحاولة لتثبيطهم المؤمنين إلا أن لفظة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تنبئ بالعموم، وأن جميع تلك الفرق التي عادت الإسلام كانت تهدف إلى النَّيل منه.

وهذا النداء وإن كان موجهًا للمؤمنين الذين حضروا غزوة أُحد، وسمعوا ما كان من أراجيف المنافقين في المدينة إلا أن ذلك يندرج تحته كل مؤمن في كل زمان ومكان؛ لأن الكافرين في كل العصور لا يريدون المؤمنين إلا خبالًا، ولا يتمنون لهم إلا الشرور والمصائب، وبعض الجرحى قد سمعوا من أهليهم المنافقين بعد المعركة ما يسوء، فعبد الله بن أُبي بن سلول لم يرحم ولده من هذا القول المسموم وقد عاد إليه جريحًا، فالأب المنافق يحاول تشكيك ابنه المؤمن في الرسول ﷺ وفي خطة المعركة كلها.

وماذا يريد العدو غير الهزيمة نفسيًّا وعسكريًّا؟ والله تعالى يبين أن في هذا خسران الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ في الدنيا بالخضوع للعدو وحرمانكم من ثمرات الكفاح، وفي الآخرة بالحرمان من ثواب الله الذي أعده للعاملين الصابرين المتقين بمخالفتكم لأمر الخالق ﷻ وتوجيهات النبي ﷺ، فلا تفكروا في ولاية أبي سفيان، ولا ولاية عبد الله بن أُبي، ولا تصغوا لأعدائكم يحدثونكم وسط الجراح والألم، بل استمدوا العون والتأييد من الله وحده، واستعيدوا ثقتكم في أنفسكم على طريق الجهاد ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران].

ثم يتابع المولى ﷻ حديثه لأصحاب الرسول ﷺ مبشرًا لهم بأنه سبحانه سيلقي الرعب والفزع في قلوب أعدائهم ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران].

فالآية الكريمة بشَّرت المؤمنين بأن الله تعالى سيلقي الرعب والفزع في قلوب الأعداء، وتجلى هذا واضحًا في مواطن كثيرة من أبرزها الأحداث الأولى في الصدام بين المؤمنين والمشركين في غزوة أُحد، ذلك أن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين «قام فقال: **يا معشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة، أو يعجلني بسيفه إلى النار؟**»، فقام إليه علي بن أبي طالب ﷺ فقال: **والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنة**، فضربه علي ﷺ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: **أنشدك الله والرحم ابن عم**، فتركه، فكبَّر رسول الله ﷺ، وقال أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ: **ما منعك أن تُجهز عليه؟** قال: **ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييت منه**».

[تفسير الطبري ٧/ ٦٨٢ تحقيق محمود محمد شاكر، ط دار المعارف].

وقال الفخر الرازي: قوله ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾: اختلفوا في أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أُحد أو هو عام في جميع الأوقات؟

قال كثير من المفسرين: إنه مختص بهذا اليوم؛ وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة، ثم القائلون بهذا القول ذكروا في كيفية إلقاء الرعب في قلوب المشركين في هذا اليوم وجهين:

الأول: أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب.

والثاني: أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة فلما كانوا في بعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئًا، قتلنا الأكثر منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم.

والقول الثاني: أن هذا الوعد غير مختص بيوم أُحد بل هو عام، وكأنه قيل: وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أُحد إلا أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار ويظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرًا لجميع الأديان والملل».

[تفسير الفخر الرازي ٩/ ٣١-٣٢، وينظر: تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت ص ١٥٥-١٥٦ مع اختلاف في الألفاظ].

ونظير هذه الآية قوله ﷺ: «... **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...**». [البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)].

وفي لفظ لأحمد: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ**».

[مسند أحمد ٣٥/ ٢٢٤ رقم ٢١٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي لفظ لمسلم: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

قال صاحب كتاب «فتح المنعم»: «وأما خصوصية النصر بالرعب ففي رواية أحمد زيادة: «**يقذف في قلوب أعدائي**»، قال الحافظ ابن حجر: في رواية: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**» أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة ولا في أكثر منها، أما دونها فلا، لكن رواية: «**وَنُصِرْتُ عَلَى العَدُوِّ بِالرُّعْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ**» ظاهرها اختصاصه به مطلقًا، وإنما جعل الغاية شهرًا؛ لأنه لم يكن بين بلده وبين أَحد من أعدائه أكثر منه، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى ولو كان وحده بغير عسكر، ثم قال: هل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه احتمال ا.هـ.

وهذا الاحتمال إنما يحتمل إذا كانت أمته قائمة على شريعته وسنته، والله أعلم».

[فتح المنعم بشرح صحيح مسلم ٥/ ١٦ للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين، ط دار الفجر الجديد].

والذي نراه أن الجندي المؤمن إذا دخل المعركة بعقيدة راسخة وإيمان بالله لا يتزعزع ودفاع عن هدف وهو إعلاء كلمة الله تعالى وتحرير الأوطان المغتصبة مع الأخذ بالأسباب بالثقة في الله ثم بالنفس وبروح عالية والاستعداد التام بقوة السلاح، فإن الله تعالى سيلقي الرعب في قلوب الأعداء لا محالة، ويتم النصر للجندي المؤمن بالله ﷻ، ومن هنا تأتي القدوة العملية للإيمان بالله ــ تبارك وتعالى ـ في السمو الإنساني في ميدان القتال، وحينئذ يملأ الرعب قلوب المشركين.

وقول الله يسجل شدة المؤمنين في القتال، ورعب المشركين: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

مع هذا النص الكريم بالفهم والإدراك لبعض معانيه يتبين لنا أهمية الثبات النفسي في المعركة، فهذه الآية وما قبلها تضرب لنا الأمثال بينة لا خفاء فيها، فنهيُ الله تعالى المؤمنين عن طاعة الكافرين وبيان نتيجة طاعتهم تعطينا أنه إذا حدثت شائعة ضد المسلمين يقصد بها إضعاف الروح المعنوية وإهدارها يكون حينئذ الفشل الذريع إذ لا ثبات للقوى المادية مع ضعف القوى المعنوية، ثم ما امتن الله به بعد ذلك على المؤمنين بإلقائه الرعب في قلوب أعدائهم حتى أحجموا عن مواصلة قتال المؤمنين أو عن الرجوع إلى المدينة بعد أن فكروا في ذلك، أو أنه وعدٌ لجميع المسلمين في كل زمان ومكان يعطينا أهمية هذه النعمة التي بها قوَّى جانب المؤمنين وأضعف قلوب أعدائه؛ ولهذا الفهم بموضوعنا صلة قوية فدراستنا مهتمة ببيان أثر الحرب النفسية في بعض المواقف العسكرية». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٢٥-١٢٩].

مراجع للاستزادة في الحرب النفسية:

(١) **الإشاعة في ضوء السنة النبوية: دراسة موضوعية** (ماجستير) ـ د/ حسين بن أحمد حمد ـ إشراف د/ نعيم أسعد الصفدي ـ كلية أصول الدين ـ الجامعة الإسلامية ـ غزة ـ فلسطين ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م ـ ٢٠٦ص.

(٢) **الحرب النفسية** ـ د/ حميدة مهدي سميسم ـ الدار الثقافية للنشر ـ القاهرة ٢٠٠٤م ـ ٣٨٧ ص.

(٣) **الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة** (ماجستير) ـ د/ عبد الوهاب أحمد كحيل ـ جامعة أسيوط ـ مصر ١٤٠٠ هـ، ط عالم الكتب ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، وط مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٩٩٦م.

(٤) **الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني)** (دكتوراه) ـ د/ محمد بن مخلف بن صالح المخلف ـ إشراف د/ محمد منير حجاب، ود/ جعفر شيخ إدريس ـ كلية الدعوة والإعلام ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٠م ـ ٦٥٨ص، ط ٣ دار عالم الكتب ـ الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ـ ٦٥٦ ص.

(٥) **الحرب النفسية في عصر النبوة** (ماجستير) ـ د/ عبد الرحمن ناصر الهزاع ـ إشراف د/ جلال عبد الحميد موسى ـ كلية الدعوة والإعلام ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م ـ ١٠٧ص.

(٦) **الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن** (ماجستير) ـ د/ هانم محمد عبده عوض ـ إشراف د/ عزت محمد حسن ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنات) ـ جامعة الأزهر ـ المنصورة ـ مصر ٢٠٠٠م.

(٧) **الحرب النفسية من منظور إسلامي** ـ د/ أحمد نوفل ـ دار الفرقان ـ عمان، الأردن ١٩٩٠م ـ ٢٢٤ص.

(٨) **الحرب النفسية منذ بداية الدعوة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي** ـ د/ حسين عدَّاي ـ دار النوادر ـ سورية، لبنان، الكويت ١٤٣٠م / ٢٠٠٩م.

(٩) **الحرب النفسية: أضواء إسلامية** ـ د/ فهمي النجار ـ دار الفضيلة ـ الرياض ـ السعودية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٣٨٦ ص.

(١٠) **الدعاية والحرب النفسية في القرآن الكريم** (دكتوراه) ـ د/ عبد الرحمن غازي محمد إبراهيم ـ إشراف د/ أحمد خالد يوسف شكري، ود/ هاشم أحمد نغيمش ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة العلوم الإسلامية العالمية ـ عمان ـ الأردن ٢٠١٥م ـ ١٦٩ص.

(١١) **دور الحرب النفسية في غزوتي أحد والأحزاب في ضوء القرآن والسنة** (ماجستير) ـ د/ زين علي حسن السيد ـ إشراف د/ عبد الله عبد الحي محمد، ود/ هاشم عبد الظاهر ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م ـ ٢٢٣ ص.

(١٢) **الرسول ﷺ والحرب النفسية** ـ الشيخ منصور محمد محمد عويس ـ مكتبة النجاح ـ طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٥م ـ ٣٢٠ ص.

(١٣) **الرسول ﷺ والحرب النفسية** ـ د/ علي حسني الخربوطلي ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٢م.

(١٤) **سياسة الحرب النفسية في الفقه الإسلامي والقانون في السلم والحرب** (دكتوراه) ـ د/ معن بن عبد الحق بن عارف خوتاني ـ إشراف د/ عثمان حيدر أبو زيد ـ كلية الشريعة والقانون ـ جامعة أم درمان الإسلامية ـ أم درمان ـ السودان ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٥٤٨ص.

(١٥) **الشائعات وأثرها على الروح المعنوية للجند: دراسة مقارنة** (ماجستير) ـ د/ فهد بن سعيد بن حميد المخلفي الحربي ـ إشراف د/ محمد بن محمد شتا أبو سعد ـ المعهد العالي للقضاء ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ـ ٢٩٦ص.

(١٦) **موقف الشريعة الإسلامية من الإشاعة في السلم والحرب: دراسة مقارنة** (ماجستير) ـ د/ عبد الله بن متعب الحربي ـ إشراف د/ عبد القادر الشيخلي ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ـ الرياض ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ـ ٢٣٩ص.

(١٧) **النظرية الإسلامية في الحرب النفسية** ـ ل.أ.ح/ محمد جمال الدين علي محفوظ ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ د.ت.